الروح المصرية الصميمة يجب أن تنبعث في دمائنا وتفكيرنا وتاريخنا

ليس في أمم العالم من تلوك ألسنتهم عبارات الفخر بالأجداد والمباهاة بالماضي والتشدق بالمجد القديم كالمصريين، ولا سيما بعد نهضة مصر الحديثة، وشعور أبناء الجيل بحاجتهم إلى سند من مجد التاريخ لما يطلبون من مجد حديث.

وليس في أمم العالم كذلك من هو منبت عن ماضيه منقطع الصلة الروحية عن قديمة، جاهل بحقيقة تاريخه كالمصريين، الذين لا تربطهم بماضيهم العظيم إلا معرفة غامضة ومعلومات ناقصة أو مشوهة.

لهذا كان الفخر بالماضي في مصر فخرًا سطحيًا تلوكه الألسن ولا تستشعره القلوب، وتصرخ به الألفاظ ولا تجيش به الدماء، ويستمد قوته من الجعجعة لا من الحياة، وتهبط سورته بانقضاء مناسبته السياسية ولا يبقى بعد ذلك حافزًا دائمًا للنهضة والطموح.

ولم يكن بين أمم الأرض ولن يكون من هم أعجب من هؤلاء المصريين الذين يملكون أمجد تاريخ ويتصلون بأعظم ماض ثم يفرطون في هذا التراث كله، ويتركونه ليد التشويه والإهمال والجهل عشرات المئات من السنين، حتى إذا نهضوا نهضتهم، وأحسوا بالحاجة إلى تراثهم الثمين، لم يفتشوا عن هذا التراث، ولم يستنقذوه من الزيف، ولم ينفضوا عنه ركام القرون، وإنما راحوا يكتفون بجعجعة جوفاء: نحن بناة الهرم، نحن أبناء الفراعنة الأمجاد، نحن أبطال التاريخ... إلى آخر ذلك الصياح الأجوف المملول!

وبقيت بعد ذلك مصر الفرعونية، مصر القديمة الخالدة، مصر العريقة في منابت الزمن الضاربة في مجاهل التاريخ، بقيت مصر هذه وهما غامضًا في نفوس الهاتفين، لا يعرفون عنها إلا ما رواه بعض المؤرخين القدماء من الخرافات والأباطيل مما كشفت البحوث الحديثة عن زيفه، ولكنه بقي يدرس في المدارس المصرية، وهو على ما فيه من أخطاء لا يبلغ أن يكون تاريخًا حيًا، وإنما هو مقتطعات سريعة ووقائع منفصلة وحوادث للملوك لا ذكر فيها للشعب، ولا بيان عن حاله، مما يجعلها مملة مبتورة لا تعلق بنفس ولا تنبض بحياة.

ولم يُبسط هذا التاريخ بسطًا متسلسلًا حيًا، على أنه وصف لحياة أقوام وأجيال عاشوا فعلًا على هذه الأرض عيشة طبيعية في عصر من العصور، حتى يشعر المصري الآن بما بينه

وبين أجداده من وشائج القربى وصلات الإحساس وروابط التفكير، وعلاقات التقاليد، فيحس حينئذ أنه امتداد لهؤلاء الأجداد، وأن بينه وبينهم صلة من الدم ورابطة من الحس وعلاقة من العادات ومشابه من الحياة على الرغم من الزمن الطويل السحيق.

والأمم التي تريد النهوض ولا تجد لها ركيزة من الماضي تزور لها تاريخًا وتحاول أن تنفخ فيه روح الحياة! وتتصيد لها أبطالاً من كل نوع، وتلتف حول ذكراهم، لأن الحاضر والمستقبل يرتكزان على الماضي ارتكاز سوق النبات على جذوره.

أما مصر الخالدة التي عاملها التاريخ بسخاء عجيب فحفظ لها ماضيها خالدًا ماثلًا على مر الأجيال، فلا تحاول أن تنتفع بهذه الميزة المفردة، وتكتفي من هذا الماضي كله بألفاظ جوفاء وصيحات فارغة حتى في عهد نهضتها وإبان بعثها في العصر الحديث.

وحيثما سار المصري الآن يجد مصر القديمة ماثلة في الآثار والتماثيل والكتابات الأثرية وفي كثير من العادات والتقاليد والألفاظ التي صانها الزمن من يد النسيان ونقلها خلال هذه الأجيال، ومع هذا فلا يفتح قلبه ليسمع نداء هذه الأطياف السارية في مجاهل الأبد، وإنما يقف كالأبله أمام آثار أجداده التي تهتف أرواحها الحية به وهو عن ندائها أصم!

كتب المرحوم عبد القادر حمزة باشا في مقدمة كتابه العظيم «على هامش التاريخ المصري القديم» يقول:

«زرت الأقصر في سنة ١٩٢٤ لمشاهدة قبر الملك توت عنخ آمون الذي كان مستر هوارد كارتر قد اهتدى إليه وكشف عنه بمساعدة اللورد كارنارفون، فزرت في الوقت نفسه كثيرًا من قبور وادي الملوك ووادي الملكات، وزرت الدير البحري ومعبد الكرنك، وكنت نازلًا في فندق «ونتر بالاس» فمررت بمعبد الأقصر رائحًا وغاديًا، ولكني لم أجشم نفسي عناء دخوله، ووقع في يدي وأنا في الفندق كتاب «طيبة» للأستاذ «كابار» وقيل لي: إن ثمنه مائتا قرش فترددت في شرائه ولكني اشتريته، ثم عدت إلى القاهرة وفي نفسي من ذلك كله أثر غامض، وقرأت الكتاب فخيل إلي أن الآثار التي مررت بها مرور الطير أخذت تتجسم أمام ناظري رويدًا رويدًا، وأن الحياة أخذت تدب فيها، فتحدثني عن مجد عجبت من انني لم أجد في مدارس الحكومة التي تلقيت فيها تعليمي في جميع درجاته ما يرشد إليه أو يبعث في الذهن فكرة عنه، «وحفزني ذلك

إلى زيارة الأقصر مرة أخرى، فزرتها في سنة ١٩٢٦، ولكن الزيارة في هذه المرة لم تكن زيارة مشاهد يريد أن يمتع نظره بمناظر غريبة، بل كانت زيارة مشوق كان قد فهم بعض الشيء من حياة طيبة، فكان يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار.

وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفًا بمصر القديمة، فأحسست رغبة قوية في زيارة المتحف المصري مع أنني قد زرته من قبل مرتين، فجعلت أزوره من جديد زيارات كان لها في نفسي معنى جديد.

وتكررت زياراتي للآثار وانكببت على المؤلفات التي وضعها علماء «المصرولوجيا» فكنت كلما أوغل فيها شعرت كأن مصر تكبر في عيني، وكاني أمتلئ بذلك زهوًا، وأخذتني الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر لا نعرف عنها هذا الذي يعرفه الأجانب، ولا نعجب بها هذا الإعجاب الذي يبذله الأجانب، ولا نغرم بمجدها وتقصي خفاياه هذا الإغرام الذي يقبل عليه ويرتاح له الأجانب.

وكان من الضروري أن أقرأ هذه المؤلفات أو بعضها على الأقل مرة وثانية بل ثالثة في بعض الأحيان، فلم أجد في ذلك كلفة ولم ينقص التكرار شيئًا من متعتي بالقراءة لأنني كنت افهم في الثانية ما يبهم علي في الأولى، وأنفذ في الثالثة إلى ما يغيب عني في الثانية».

في هذه الفقرات قص المرحوم عبد القادر باشا قصته مع مصر القديمة، وهي قصة كل شاب مصري ينشأ ويكبر ويغادر مقاعد الدراسة دون أن يعرف عن مصر شيئًا ذا قيمة، ودون أن تعقد الصلة بين وجدانه وبين هذا الماضي البعيد، ودون أن يسايره تاريخ بلاده خطوة خطوة حتى ينمو في شعوره ويتجسم في إحساسه، ويشخص في خياله كائنًا حيًا يعاطفه ويناجيه، فيحب هذه الأرض لأنها تضم ذلك الماضي الذي كانت مسرحًا له في غياهب التاريخ.

ومن هنا يقف المصري وقفة البلاهة وعدم الفهم أمام آثار بلاده وتماثيل أجداده، لأن تلك الآثار وهذه التماثيل قطع جامدة ميتة لا تصله بها وصلة من المعرفة، ولم تحاول المدرسة أن تبعثها حية في خياله نابضة في ضميره، وهي لا تستطيع أن تضع هذه المعجزة... معجزة بث الحياة في آثار جامدة وأخبار غابرة، إلا أن تصور الماضي تصويرًا كاملاً شاملًا، وإلا أن تصف

حياة ذلك الشعب المتسلسل في أجياله وصفًا حيًا نابضًا لا أن تكتفي بالنبذ المتقطعة والحوادث الحربية والسياسية، على ما فيها من خرافات وأضاليل.

والتاريخ الشعبي لا تطلب معرفته لمجرد المعرفة –على ما فيها من لذة ومتعة– ولكن هذه المعرفة ضرورة وطنية وقومية واجتماعية، بل ضرورة شخصية في بعض الأحيان.

فهي ضرورة لتطبع الناشئ حين تختلط بحسه وتمازج نفسه في مراحل الدراسة بطابع القومية الخاصة بشعبه، ولتشعره أنه فرع من دوحة قديمة، فرع من فروع هذه الدوحة مشابه وله بها صلات حية كامنة في الجذور والأغصان، وليس حب الوطن إلا هذا الشعور المبهم الوثيق، والفرد حين يشعر على هذا النحو تنمو في نفسه وجدانات التعاون والتواد بينه وبين المواطنين المتفرعين من دوحة قديمة لا تزال خالدة تنبثق منها الفروع والأفنان وجذورها وثيقة بالتربة الخالدة وراء الأجيال، ثم يشعر هو نفسه بالكثير من العظمة حين يشعر هو بامتداد أصله وتوثقه، وبمقدار ما يشغل من فراغ الدنيا، وحلقات الزمان، ثم تتسع نفسه حين تنفعل بآلاف الحوادث والمواقف في تاريخه القديم انفعال القرابة والمشاركة بين القريب والقريب، فإذا هي مبلورة أو هي ملخص لملايين النفوس التي سبقتها على مسرح هذا الوطن العريق.

فالأعمال العظيمة مواقف البطولة والحوادث الجسام والآمال والآلام، وجميع ما حوته تلك الأحقاب الطويلة من تاريخ الوطن، إنما هي روافد لنفوس كل جيل، وحوافز لمشاعر كل فرد، وليس الغابرون في مسارب الزمن جثثًا هامدة مزجاة في الأكفان مطمورة في الرمال، وإنما هم ذوات حية يمكن أن تقع فلهم معجزة البعث في كل لحظة فينتفضون شخوصًا يشاركوننا هذه الحياة الحاضرة ويدبرون معنا أمرها، ويزودوننا بتجاربهم ونصائحهم، وتلك المعجزة في عداد الممكنات طالما أن خيالنا مستطيع أن يطل على مسرح الماضي؛ وأن ينفعل بحوادث التاريخ.

كيف نصنع المعجزة؟ كيف نبعث الموتى، وننهض بالماضي، ونجسم التاريخ؟

إن الزمن الذي عامل مصر بسخاء عجيب فحفظ لها آثارها وتاريخها ليجعل هذه المعجزة أمرًا هينًا، فعلى مرأى منا ومسمع تطل مصر الفراعنة وتهتف، وما علينا إلا أن نلقي بالنا إليها فتتم المعجزة من أيسر طريق.

وفيما تقدم من القول إجمال نفصله هنا بعض التفصيل:

إن الكتب التي بأيدي تلاميذ المدارس اليوم عن مصر يجب أن تنزع وتلقى بعيدًا عن متناولهم حتى لا تشوه لهم تاريخ بلادهم ولا تحيله جامدًا ميتًا لا روح فيه وحتى لا تخلق بينه وبينهم جفوة توصد نفوسهم دونه كما هو حادث الآن إذ أن مئات الأسماء للملوك وللحوادث الحربية وللأمكنة وللتواريخ الرقمية التي حدثت فيها تصد الناشئ عن هذا التاريخ وتكرهه فيه لأنه واجب ثقيل لا حياة فيه.

يجب إذن أن تختفي هذه الكتب المؤذية، واختفاؤها هو واجب وطني قبل أن يكون واجبًا علميًا، كما أن بقاءها جريمة في حق الوطن لن يغفرها لهذا الجيل.

فغذا قذفت هذه الكتب إلى الجحيم، فيجب أن تحل محلها كتب أخرى متدرجة حسب مراحل الدراسة، ففي المدارس الابتدائية تستبدل بها كتب قصصية عن حياة المصريين تصور هذه الحياة تصويرًا صحيحًا، وتشتمل على عاداتهم وتقاليدهم وبعض عقائدهم وأناشيدهم حتى تتجسم في هذه المخيلات الصغيرة صورة شاخصة لمصر الفرعونية لا أثر فيها للسرد المملول ولا للتواريخ الرقمية للحوادث إلا ما تيسر في ثنايا القصص المحبوب.

وفي المدارس الثانوية تدرس سير بعض الأبطال القدماء بحيث تشمل هذه السير تأريخا للحوادث في عصرهم ووصفًا لحالة الشعب وبسطًا لعاداته وتقاليده وديانته وكثيرًا من أناشيده في مواسمه وأعياده، ودرس السير الشخصية من ألذ وأمتع الدراسات، وهو فرصة لتصوير حياة الشعوب وحوادثها في خلال حياة الشخصية المدروسة وهو في مرحلة الدراسة الثانوية بالذات – وهي مرحلة المراهقة– أنسب طرق الدراسة وأبعث ما يكون لخيالهم الخصب وعواطفهم المشبوبة واستعدادهم للتشبه بالأبطال– ولا سيما حين يكون أولئك الأبطال من دمهم ومن عنصرهم.

والتاريخ المصري غني بالشخصيات التي تملأ سيرتها كتبًا كاملة وتقوم حولها روايات عظيمة، فمينا ورمسيس وأحمس وتحتموس وتوت عنخ آمون وأمنحوتب وأمثالهم يمكن أن تكون سيرهم مرآة لسير الجيل في غير تكلف ولا تحمل.

وفي المرحلة الجامعية يدرس التاريخ المصري دراسة بحث وتمحيص، ويختار عصر من عصوره لكل فرقة أو كل مرحلة، على أن تكون دراسة الشعب هي العنصر الأساسي لا دراسة الحوادث والملوك.

وفي التاريخ المصري كثير من الأساطير، فحول هذه الأساطير وحول الحوادث التاريخية كذلك والأشخاص الوهميين أو الحقيقيين ينبغي أن تحاك القصص والروايات والأفلام ويوضع ذلك كله في متناول التلاميذ والطلاب حسب أعمارهم وثقافتهم، للقراءة والمشاهدة والتمثيل.

وفي ثنايا تلك القصص والروايات تتبين العقائد القديمة والتقاليد التي كانت مرعية، وتبرز بصفة خاصة العقائد والعادات والألفاظ التي لا تزال حية تعيش بيننا على اليوم، وينبه على الاساطير اتي لا تزال سارية بيننا مروية في الريف إلى هذا العصر، وفي مصر من ذلك الشيء الكثير.

وليس أفعل في النفس من عوض هذه الأشياء الباقية إلى الآن، فإن بقاءها حية ينشط الخيال إلى إحياء الماضي وإدماجه في الحاضر وإلى الشعور بالتسلسل والارتباط بين الأجداد والأحفاد على الرغم من حواجز الزمن وتقلب الدول وتتابع الحكام على وادي النيل.

والأناشيد المصرية القديمة في الحفلات والمواسم تعيد إلينا إذا حفظت وأنشدت نفحة من مصر القديمة، وقد أحسنت محطة الإذاعة مرة فاذاعت حفلة وفاء النيل في مصر الفرعونية، وفي هذا اليوم طار خيال المستمعين وراء أجهزة الإذاعة فتخيلوا مواكب فرعون وتراتيل المنشدين وهتاف الجماهير وألحان الموسيقيين، وأحس كل مصري أن هذا المشهد شاخص على ضفاف الوادي وأن الفراعين مبعوثون تموج الضفاف بأجنادهم ومواكبهم من وراء القرون.

فلم لا يكون في برامج المحطة الشهرية حفلة من هذه الحفلات أو إذاعة تشبهها، وهي وسيلة من أقوى الوسائل لإحياء التاريخ وتجسيم المشاهد وتشخيص المواقف وتصوير الأحاديث؟

وقد كانت في مصر مواسم لوفاء النيل وحصاد القمح والنيروز وتنصيب الملوك وتقديم القرابين، فلم لا تبرز هذه المشاهد ولا تحيا هذه المواسم على أنها شطر من التاريخ وقطعة من الزمان وفصل من فصول الرواية الإنسانية الطويلة؟

وهذه الآثار والتماثيل يجب عقد الصلة بينها وبين نفوس التلاميذ والطلاب بتكرار زيارتها وشرحها لهم شرحًا وافيًا، وإيجاد الارتباط بينها وبين ما يدرسون في كتبهم وما يتلقون في دروسهم، وحينئذ تنقلب هذه المخلفات الجامدة حية تحدثهم عن نفسها وتشرح لهم تاريخها وتشير إلى الروابط الوثيقة بينهم وبينها فتعيش في أوهامهم عيشة الأحياء المبعوثين.

ولعل من أعجب الأشياء أن توضع العراقيل بين المصريين وبين آثارهم بالرسوم والقيود مع أنهم راغبون في الأصل عنها لجهلهم بها، وكان المعقول أن يقول المسئولون بدعاية عامة لزيارة هذا الآثار مع تيسير كل سبيل إليها ومع توزيعها في كل مكان حتى يسهل «تصنيفها» وزيارتها.

فرسم الدخول للمتحف ورسم دخول الأهرام يجب أن يُزالا –ولو مؤقتا– حتى يألف المصريون تاريخهم وحتى يشعروا باللذة فيه والشوق إليه وحينئذ لا مانع من الرسوم والقيود.

وهذا الرسم سهل نسبيًا إذا قيس إلى نفقات الحياة والسفر إلى الأقصر وأنس الوجود فهي تكاليف لا يقدر عليها إلا المترفون الذين لا يحسون لهذه الآثار معنى لأن معظمهم غريب عن العنصر المصري لا تربطه به إلا رابطة الجنسية القانونية!

فعلى المسئولين تقع تبعة هذا التعقيد، ولكن المسئولين وحدهم أن يستطيعوا التغلب الكامل على العوامل الاقتصادية وشئون الاستغلال، فيجب أن تنهض بذلك جماعة تأخذ على عاتقها الدعاية للتاريخ المصري ولمصر الفرعونية، ومهمة تيسير الوسائل لزيارة آثارها في كل مكان بنفقات معقولة يقدر عليها الأوساط من الناس بله الفقراء المحرومين.

ويبقى من وسائل بعث مصر القديمة: العمارة القومية وذلك موضوع عويص طويل، فالعمارة في مصر شأنها عجيب، ومدينة كالقاهرة أصبحت معرضًا غريبًا لمختلف صنوف العمارة التي لا تربط بينها رابطة والتي لا قوام لها ولا اتجاه.

والمفروض أن العمارة تعبير عن روح الشعب وقوميته كبقية الفنون، فأين هي الروح المصرية التي تعبر عنها العمارة الحاضرة؟ إنها خليط من كل شعب ومزيج من كل عصر، تتوه فيها شخصية الأمة فلا يعثر عليها من يتفقدها في عمارتها.

وهذه العمارة المشوهة المختلطة تباعد بيننا وبين التاريخ، وتفصل بيننا وبين ماضينا العريق فيجب أن نضع تصميمات معمارية مصرية تبرز فيها شخصيتنا الكامنة، وأن نعممها في كل مكان عن طريق القانون في كل ما يجد من منشآت حتى نتدارك هذا الخلط الشنيع، وفي الآثار المصرية في مختلف العصور رصيد وافر لأزياء العمارة التي نريدها للعصر الحديث.

* * *

وأخيرًا نذكر أن بعد المسافة بين الأجيال البعيدة والأجيال الحاضرة وما تراكم حولها من غبار الزمن وتقلب الدول وانقطاع المعرفة بين الماضي والحاضر يخيل لمن ينظر النظرة الأولى أن مصر الفرعونية قد استحالت مجرد ذكرى في خيال الزمان.

والحق غير ذلك، فالفلاح المصري الحديث لا يزال نسخة من الفلاح المصري القديم ولا تزال معظم الأدوات الزراعية والأساطير حول النيل والأرض والزرع هي نفسها على الرغم من جميع التغيرات والتطورات.

ولا يزال الكثير من الأساطير القديمة والخرافات حول السحر وتفسير مظاهر الطبيعة مندسًا في أوساط الفلاحين والعوام في كل مكان وفيما يلي أمثلة على ذلك كله:

فهذا نشيد لأحد العازفين نقلًا عن كتاب «من أدب الفراعنة» للأستاذ محمد صابر يقول فيه:

«تذهب الأجسام منذ القدم وتحل مكانها أخرى.

والملوك الأقدمون ينامون في أهرامهم.

وكذلك يرقدون النبلاء والعلماء والعظماء.

وتهدمت المنازل التي شيدوها وزالت معالمها.

مع عظمة أعمالهم.

لقد سمعت حكم ايمحوتب وحورداداإف وغيرهما.

الذين يتناقل الرجال حكمهم.

أين مقابرهم؟ لقد زالت وتهدمت.

وكأنهم لم يوجدوا.

ولم ترجع إلينا روح لتنبئنا بما حل بهم وما لا قوه.

لتطمئن نفوسنا قبل رحيلنا على حيث مضوا.

ولتنس عقولنا ذلك ونطمئن.

فامرح وانشرح واطرب ما دمت حيا.

وادهن رأسك بالطيب.

وتزين بالكتان الأبيض المعطر كالآلهة.

واقض كل رغبات قلبك.

إلى أن يحين يوم رثائك.

حين راحة القلوب.

فلا يسمع صراخ وعويل الحزانى من في القبر راقد.

فاطرب وانشرح ولا تحمل هما.

فلم يأخذ أحد ثراءه معه إلى القبر».

أليس هذا النشيد خلاصة للروح المصرية الباقية إلى اليوم؟ أليس أخص خصائص المصري أن يقول: «أحيني النهاردة وموتني بكره»، «ما حدش واخد معاه حاجة» وأن يتصرف في حياته على هذا الأساس؟

إن دراسة مثل هذه الأغاني لتكشف لنا عن طبيعة النفس المصرية وهي طبيعة باقية على اليوم تتوارثها الأجيال، وتسهل علينا مهمة عقد الصلة بين القديم والحديث في كل زمان.

ومثال آخر في نشيد النيل وهو طويل نقتطف منه هذه الفقرات نقلًا عن كتاب «على هامش التاريخ المصري القديم» للمرحوم عبد القادر حمزة باشا.

«سلام عليك يا حابي، يا من تخرج إلى هذه الأرض وتأتي لتحيي مصر، يا من تخفي في الظلمات مجيئك، إنك اللجة تنتشر على الحقل التي يخلقها «رع»، إنك تعطي الحياة جميع الظمآنين، ولكنك ترفض أن تروي الصحراء من فيض ماء السماء، ومتى هبطت فإن «جب» إله

الأرض يشغف بالخبز على اختلاف أنواعه، و«نابري» إله الحبوب يقدم قربانه «وبتاح» ينشر الرخاء في دار صناعته.

«أنت سيد الأسماك، متى جزت الشلال لم تعد الطيور ترتمي متردية على الحقول، أنت صانع القمح والشعير وكاسي المعابد حلل الأعياد».

إلى أن يقول:

«أيها المعطي الخيرات الحقيقية، ومن تتجه إليه رغبة الخلق، ها هي ذي كلمات مزوقة لكي تجيب، فغن أنت أجبت واعطيت أمواج الأقيانوس السماوي، فإن «نابري» إله الحبوب يقدم قربانه، والآلهة جميعًا يعبدونك والطيور لا تتردى على الجبل.

لو أن ما تعجنه يداك كان ذهبًا، أو قوالب من الفضة، لما أكله الناس، لأنهم لا يأكلون ذهبًا ولا فضة ولا زورد، وإنما يأكلون قمحًا هو أفضل من الحجارة الكريمة.

لقد بداوا يشدون باسمك على القيثارة، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدي، وهؤلاء هم ذراري أبنائك يفرحون بك؛ ويمطرونك برسائل الثناء عليك، ولا عجب فإن غله الغنى هو الذي يزين الأرض ويبسط الخير للسفن، ويبعث الحياة في قلوب النساء الحاملات، ويحب أن يتكاثر عدد القطعان.

إنه النيل، لأبنائه جميع النباتات، وإذا هو لم يطعم الناس، هجر النعيم المساكن وأصيبت الأرض بالاضمحلال».

أليس هذا النشيد منبعثًا من قلب مصر هبة النيل؟ فإذا نحن أحيينا دراسته ودراسة أمثاله من الأناشيد فإنما نربط بين الحاضر والماضي برباط من الأحاسيس الباقية والموروثات الوجدانية الكامنة.

أما تغلغل بعض العقائد الشعبية وانسيابها في نفوس العوام حتى اليوم فالأمثلة عليه كثيرة، ذكر الأستاذ سليم بك حسن في كتابه «مصر القديمة» تحت عنوان «البقرات تتقمص شجر الجميز ولذلك أصبحت الجميزة مقدسة» هذه هي الفقرات:

«أما البقرات فكانت تعبد في منطقة منف «البدرشين» وتقمصت روحها شجرة الجميز، وكانت الجميزة في هذه الجهة تسمى شجرة جميزة الجنوب، وكان يعتقد أنها جسم الإلهة «حتحور» (البقرة» الحي على الأرض، وكانت الآلهة نفسها تُسمى سيدة شجرة الجميز الجنوبية.

«وكثيرًا ما يشاهد على الآثار المصرية رسم شجرة الجميز والآلهة مطلة من بين أغصانها على شكل امرأة وبيدها إبريق تصب منه الماء للسابلة والأموات في وسط الجبانة، وقد بقى احترام الجميزة باقيًا للآن إذ تزرع بجوار المقابر يُستظل بفيئها، وتروي ظمأ الأموات، وكما هو الاعتقاد السائد الآن بين عامة الشعب ويعد قطعها من الأمور المحرمة».

وعند خسوف القمر نرى الصبية والعوام في الصعيد يضربون على الصفيح والطبول وهم ينشدون «يا بنات الحور سيبوا القمر، دا القمر مخنوق»... إلخ، دون أن نعلم سببًا لعقيدة أن القمر مختنق وأنهم يطلبون الإفراج عنه، فيقول الأستاذ سليم حسن بك في كتابه ما قد يفسر هذه العقيدة الغامضة مع تحريف في بعض الألفاظ والأسماء من جراء القرون الطويلة.

ومما يسترعي النظر من بين معابد الآلهة المنتشرة في الوجه القبلي معابد الإلهين: «حور» و «ست» إذ كانت لهما أهمية عظيمة في طول البلاد وعرضها، وهنا يجب أن ننبه الأذهان على أن هذين الإلهين لم تكن لهما علاقة في الأصل بالإله «أوزير» أو الإله «ست»، بل في الحقيقة كانا أخوين متخاصمين، فكان «ست» يمثل الظلمة الدامسة والهلاك، على أن الإله «حور» كان يمثل النور الذي يسطع بين نجوم السماء ويحلق في الفضاء على هيئة صقر عيناه الشمس والقمر، وهو يقوم بحرب أبدية على الإله «ست» دون أن تسفر انتصاراته المتوالية على القضاء على خصمه، وعندما يحدث خسوف القمر يرى المصريون في ذلك أن الإله «ست» قد اقتلع عين «حور».

فحور اسم الإله القديم قلبت في لغة العوام «بنات الحور» بتأثير الإسلاميات الحديثة واقتلاع عين حور عدل إلى كونه مخنوقًا، ولكن أساس الأسطورة واحد في القديم والحديث.

ومما يذكره الأستاذ سليم بك في كتابه كذلك أن الطائر المسمى «مالك الحزين» كان يعبد في عين شمس وكان المعتقد أنه يلد على شجر في معبد هناك ثم يقول: «ومن المحتمل أنها

الشجرة القديمة المقدسة التي كان الآلهة يكتبون على أوراقها أسماء الملوك تخليدًا لذكراها ويقال: إن الشجرة التي تزار الآن بجهة عين شمس هي من نسل هذه الشجرة المقدسة».

ومن مخلفات العقائد القديمة في ألوهية الشمس ما نراه في الصعيد خاصة حيث يتوجه الناس بالسن المخلوعة فيقذفونها إلى قرص الشمس وهم يقولون: «خدي سن الحمار وهاتي سن الغزال» معتقدين أن هذا يساعد على نمو سن غيرها أجمل منها.

ولا نريد أن نتكلم عن العقائد الخاصة بالسحر وتأثيرها في القديم والحديث فهي من أمهات العقائد المصرية الباقية على الرغم من اختلاف الديانات على اليوم وتعدد الثقافات.

فشعب يرتبط حاضره بماضيه كل هذا الارتباط لا يتعب مؤلفي التاريخ في بعث الماضي وتصويره حيًا ناميًا متغلغلًا في كيان الأجيال، وعندئذ يشعر المصري أنه قديم عريق وأنه ممتد بلا انقطاع، وأنه يحمل بين جنبيه قبسًا من المجد العريق ويرث في دمه بذور هذا الماضي المجيد(١).

---

(١) مجلة الشؤون الاجتماعية ٣/ ١٩٤٢